- ١١ -

القواعد التى يحتاج إليها المفسر

لا بد فى تناول أى علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة ، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه ، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطى مفاتيحها ، وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربى مبين : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، فإن القواعد التى يحتاج إليها المفسِّر فى فهم القرآن ترتكز على قواعد العربية ، وفهم أسسها ، وتذوق أسلوبها ، وإدراك أسرارها ، ولذلك كله فصول متناثرة ، ومباحث مستفيضة فى فروع العربية وعلومها ، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزًا لأهم ما يجب معرفته فى الأمور الآتية :

* * *

١ - الضمائر

للضمائر قواعدها اللُّغوية التى استنبطها علماء اللُّغة ، من القرآن الكريم ، ومن مصادر العربية الأصيلة ، ومن الحديث النبوى ، ومن كلام العرب الذين يُستشهد بكلامهم نظمًا ونثرًا ، وقد ألَّف ابن الأنبارى (٢) فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين (٣) .

وأصل وضع الضمير للاختصار ، فهو يُغنى عن ذكر ألفاظ كثيرة ، ويحل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار ، فقد قام فى قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً

---

(١) يوسف : ٢

(٢) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، كان له عناية باللُّغة وبعلوم القرآن ، توفى سنة ٣٢٨ هجرية .

(٣) انظر : « الإتقان » (١/١٨٦) .

وأجرًا عظيمًا ﴾ [1] مقام عشرين كلمة لو أتى بها مُظْهَرة ، هى المذكورة فى صدر الآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

والأصل تقديم مفسر لضمر الغائب . . ويعلل النحاة هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة ، وضمير الغائب عار عن هذا الوجه من التفسير ، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره ، ولذلك قالوا : يمتنع عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة ، واستثنوا من هذه القاعدة مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرائن فى نفس اللَّفظ ، أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب [3] ، قال ابن مالك فى « التسهيل » : « الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب ، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل ، وهو إما مصرح به بلفظه ، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حسًا أو علمًا ، أو بذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما » .

وعلى هذا فالمرجع الذى يعود إليه ضمير الغيبة ، يكون ملفوظًا به سابقًا عليه مطابقًا له - وهذا هو الكثير الغالب - كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ [4]

---

(١) الأحزاب : : ٣٥ (٢) الأحزاب : ٣٥

(٣) ألقى الدكتور طه حسين فى مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد سنة ١٣٤٧ هجرية محاضرة عنوانها : « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة فى القران » نشرتها مجلة الرابطة الشرقية ، جاء فيها : إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور بتقدمه لفظًا ورتبة - يطابق هذا المذكور فى التذكير والتأنيث وفى الإفراد والتثنية والجمع ، وأن ما ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكلف ، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن ، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين ، انظر : « بلاغة القرآن » (ص٦٤ وما بعدها) .

(٤) هود : ٤٢

أو يكون ما سبق متضمنًا له ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

فإن ضمير « هو » يعود على العدل الذى يتضمنه لفظ « اعدلوا » أى أن العدل أقرب للتقوى - أو دالاً عليه بالتزام كقوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢) فالضمير فى « إليه » يعود على العافى الذى يستلزمه « عُفِيَ » .

وقد يكون المرجع متأخرًا لفظًا لا رتبة كقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ (٣) ، أو لفظًا ورتبة كما فى باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ ﴾ (٧) ، أو متأخرًا دالاً عليه كقوله : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ (٨) فضمير الرفع مضمر يدل عليه « الحلقوم » ، والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم - أو مفهومًا من السياق كقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٩) أى على الأرض ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١٠) أى القرآن ، وقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (١١) أى النبى ﷺ ، وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (١٢) فالواو فى « يقولون » للمشركين ، وفاعل « افترى » للنبى ﷺ ، ومفعوله للقرآن .

وربما عاد الضمير على اللَّفظ دون المعنى كقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ ﴾ (١٣) فالضمير فى « عمره » المراد به عمر معمر

---

(١) المائدة : ٨
(٢) البقرة : ١٧٨
(٣) طه : ٦٧
(٤) الإخلاص : ١
(٥) الأنبياء : ٩٧
(٦) الكهف : ٥٠
(٧) الأعراف : ١٧٧
(٨) الواقعة : ٨٣
(٩) الرحمن : ٢٦
(١٠) القدر : ١
(١١) عبس : ١
(١٢) هود : ١٣
(١٣) فاطر : ١١

آخر ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول ، فكنى عنه بالضمير كأنه الأول ، لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكتابة فى عمره ترجع إلى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر » (١) .

وربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهَا وَلَدٌ ، فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (٢) فالضمير فى « كانتا » لم يتقدم لفظ تثنية يعود عليه ، لأن الكَلالَة تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فثنى الضمير الراجع إليها حملاً على المعنى ، وقوله : ﴿ وَآتُواْ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ﴾ (٣) فالضمير فى « منه » يعود على معنى الصدقات، لأنه فى معنى الصداق ، أو ما أُصدق ، كأنه قيل : وآتوا النساء صداقهن، أو ما أصدقتموهن .

وقد يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره ، كقوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ (٤) .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٥) ، وإنما يخرج من أحدهما ، وهو الملح دون العذب ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، وبهذا قال الزجاج وغيره .

وقد يعود على ملابس ما هو له كقوله : ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾(٦) أى ضحى يومها لا ضحى العشية ، لأن العشية لا ضحى لها .

وقد يراعى فى الضمير اللَّفظ أولاً ، ثم يراعى المعنى ثانيًا ، كقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، أفرد

---

(١) راجع كتب التفسير فى ذلك .
(٢) النساء : ١٧٦
(٣) النساء : ٤
(٤) الأنعام : ٢٩
(٥) الرحمن : ٢٢
(٦) النازعات : ٤٦
(٧) البقرة : ٨

الضمير فى « يقول » باعتبار لفظ « من » ثم جمع فى « وما هم » باعتبار معناه .

* * *

٢ - التعريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ (١) أى رجل واحد - أو إرادة النوع كقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (٢) أى نوع من الحياة ، وهو طلب الزيادة فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر - أو هما معًا كقوله : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ (٣) أى كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف - أو التعظيم كقوله : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ ﴾(٤) أى حرب عظيمة - أو التكثير كقوله : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ (٥) أى أجرًا وافرًا - أو هما معًا كقوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٦) أى رسل عظام ذوو عدد كثير - أو التحقير كقوله : ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٧) أى من شىء هين حقير مهين - أو التقليل كقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ (٨) أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف .

ويكون بالإضمار لأن المقام مقام المتكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة وبالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه - أو لتعظيمه كقوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ (٩) ، أو إهانته كقوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا

---

(١) القصص : ٢٠ (٢) البقرة : ٩٦ (٣) النور : ٤٥
(٤) البقرة : ٢٧٩ (٥) الشعراء : ٤١ (٦) فاطر : ٤
(٧) عبس : ١٨ (٨) التوبة : ٧٢ (٩) الفتح : ٢٩

أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) ، وبالإشارة لبيان حاله فى القرب كقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (٢) ، أو لبيان حاله فى البعد كقوله : ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (٤) ، أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٥) ، أو التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ من قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) ، وبالموصول لكراهة ذكره باسمه سترًا عليه ، أو غير ذلك كقوله : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ (٨) ، أو لإرادة العموم كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٩) ، أو الاختصار كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ (١٠) ، إذ لو عدَّد أسماء القائلين لطال الكلام - وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكرى ، كقوله : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ (١١) ، أو معهود ذهنى كقوله : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (١٢) ، أو معهود حضورى كقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١٣) ، أو لاستغراق الإفراد كقوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ

---

(١) المسد : ١
(٢) لقمان : ١١
(٣) البقرة : ٥
(٤) العنكبوت : ٦٤
(٥) البقرة : ٢
(٦) البقرة : ٢ - ٥
(٧) الأحقاف : ١٧
(٨) يوسف : ٢٣
(٩) العنكبوت : ٦٩
(١٠) الأحزاب : ٦٩
(١١) النور : ٣٥
(١٢) الفتح : ١٨
(١٣) المائدة : ٣

لَفِى خُسْرٍ ﴾ (١) ، بدليل الاستثناء - أو لاستغراق خصائص الإفراد كقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ (٢) ، أى الكتاب الكامل فى الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزَّلة بخصائصها ، أو لتعريف الماهية والحقيقة والجنس ، كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٣) .

وإذا ذُكِرَ الاسم مرتين فله أربع أحوال ، لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثانى معرفة ، أو بالعكس .

١ - فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالبًا كقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) .

٢ - وإن كانا نكرتين فالثانى غير الأول غالبًا كقوله : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (٥) ، فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثانى الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة ، وقد اجتمع القسمان فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٦) ولذلك رُوِىَ عن ابن عباس : « لن يغلب عُسر يُسرين » ، لأن الْعُسر الثانى أعاده بـ « الـ » ، فكان عين الأول ، ولما كان اليُسر الثانى غير الأول لم يعده بـ « الـ » .

٣ - وإن كان الأول نكرة ، والثانى معرفة ، فالثانى هو الأول حملاً على العهد ، كقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ (٧) .

٤ - وإن كان الأول معرفة ، والثانى نكرة ، توقف المراد على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا

---

(١) العصر : ٣ (٢) البقرة : ٢ (٣) الأنبياء : ٣٠
(٤) الفاتحة : ٦ - ٧ (٥) الروم : ٥٤ (٦) الشرح : ٥ - ٦
(٧) المزمل : ١٥ - ١٦

غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (١) ، وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٢) .

* * *

٣ - الإفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص ، وجمعه لإشارة معينة ، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس .

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت فى القرآن إلا مجموعًا ، وعند الاحتياج إلى صيغة المفرد ، يستعمل مرادفه كلفظة « اللُّب » فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) ولم يجىء فى القرآن مفرده ، بل جاء مكانه « القلب » كقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٤) ، ولفظة « الكوب » لم تأت مفردة وقد أتى الجمع : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٥) .

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة فى كل موضع من مواضع القرآن ، ولما أريد جمعها جُمعت فى صورة من الروعة ليس لها مثال ، كقوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (٦) ، ولم يقل سبحانه : « وسبع أرضين » لما فى ذلك من الخشونة واختلال النظم .

ومن ذلك لفظة « السماء » ذُكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد ، لنكت مناسبة ، فحيث أريد العدد ، أُتِىَ بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، كقوله : ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ (٧) ، وحيث أُريد الجهة أُتِىَ بصيغة الإفراد كقوله : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ (٨) .

---

(١) الروم : ٥٥
(٢) الزمر : ٢٧ - ٢٨
(٣) الزمر : ٢١
(٤) سورة ق : ٣٧
(٥) الغاشية : ١٤
(٦) الطلاق : ١٢
(٧) الحشر : ١
(٨) الملك : ١٦

ومن ذلك « الريح » ذُكرت مجموعة ومفردة ، فتُذكر مجموعة فى سياق الرحمة وتُفرد فى سياق العذاب ، وذكر فى حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، ويقابل بعضها الآخر أحيانًا ، لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت فى الرحمة رياحًا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ، ولا معارض لها ولا دافع ، وقد أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أُبَىّ بن كعب ، قال : كل شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شىء من الريح فهو عذاب ، ولهذا ورد فى الحديث : « اللَّهُمَّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا » وما عرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى (١) .

ومن ذلك إفراد « النور » وجمع « الظلمات » ، وإفراد « سبيل الحق » وجمع « سبل الباطل » لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، ولهذا وحَّدَ « ولى المؤمنين » وجمع « أولياء الكافرين » لتعددهم كما فى قوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٣) .

ومن ذلك « المشرق والمغرب » بالإفراد والتثنية والجمع ، فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتى الشرق والغرب كقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٤) والتثنية باعتبار مطلعى ومغربى الشتاء والصيف كقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (٥) ، والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه ، أو مطلع كل فصل ومغربه كقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٦) .

* * *

---

(١) فقد أفردت فى قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (يونس : ٢٢) ، بوجهين: لفظى ، وهو المقابلة فى قوله : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، ومعنوى وهو أن تمام الرحمة هنا ، إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد وإلا تعرضت للهلاك .

(٢) البقرة : ٢٥٧ (٣) الأنعام : ١٥٣ (٤) المزمل : ٩ (٥) الرحمن : ١٧

(٦) ألَّف أبو الحسين الأخفش - كتاباً فى الإفراد والجمع ، ذكر فيه جميع ما وقع فى القرآن مفردًا ، ومفرد ما وقع جمعًا ، انظر « الإتقان » (١/١٩٣) - (والآية من سورة المعارج : ٤٠) .

٤ - مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا ، بكل فرد من هذا ، كقوله : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ (١) ، أى استغشى كل منهم ثوبه ، وقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ (٢) أى كل واحدة تُرضع ولدها . وتارة يقتضى ثبوت الجميع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (٣) ، أى اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد ، وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يُعيِّن أحدهما .

أما مقابلة الجمع بالمفرد . فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد وقد يقتضيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (٤) ، أى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين .

* * *

٥ - ما يُظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك « الخوف والخشية » فالخشية أعلى من الخوف ، وهى أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية : أى يابسة ، وهو فوات الكلية ، والخوف من قولهم : ناقة خوفاء : أى بها داء ، وهو نقص وليس بفوات ، كما أن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قويًا ، فهى خوف يشوبه تعظيم ، والخوف من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا ، ومادة الخشية : الخاء والشين والياء ، فى تصاريفها تدل على العظمة ، فالشيخ : السيد الكبير ، والخيش : الغليظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبًا فى حق الله تعالى ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللهَ ﴾ (٦) ، وأما قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (٧)

---

(١) نوح : ٧ (٢) البقرة : ٢٣٣ (٣) النور : ٤
(٤) البقرة : ١٨٤ (٥) فاطر : ٢٨ (٦) الأحزاب : ٣٩
(٧) النحل : ٥٠

فقد جاء فى وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظًا شدادًا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين الَّذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم ، وهما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه .

ومن ذلك « الشُّح والبخل » فالشُّح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص ، وذلك فيما يكون عادة .

ومن ذلك « السبيل والطريق » فالسبيل أغلب وقوعًا فى الخير ، أما الطريق فلا يكاد يُراد به الخير إلا مقترنًا بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله : ﴿ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) قال الراغب فى مفرداته : السبيل : الطريق الذى فيه سهولة فهو أخص .

ومن ذلك « مد وأمد » قال الراغب : أكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب كقوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ﴾ (٢) ، والمد فى المكروه كقوله : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدا ﴾ (٣) .

* * *

٦ - السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقًا للسؤال ، وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهًا على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى بأسلوب الحكيم ، ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ ﴾ (٤) فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال : لِمَ يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد قليلاً حتى يمتلئ ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيهًا على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه .

وقد يجئ الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم

---

(١) الأحقاف : ٣٠ (٢) الطور : ٢٢

(٣) مريم : ٧٩ (٤) البقرة : ١٨٩

مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ [1] فى جواب : ﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ ﴾ [2] .

وقد يجئ أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ﴾ [3] فى جواب : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [4] لأن التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بـ«عن » وهو أكثر كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [5] ، وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يتعدى بنفسه أو بـ « من » وبنفسه أكثر كقوله : ﴿ وَاسْأَلُواْ مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ [6] ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [7] .

* * *

٧ - الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ، ولكل منهما موضعه الذى لا يصلح له الآخر ، فيأتى التعبير مثلاً فى النفقة بالفعل كقوله : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [8] ولم قل « المنفقون » ويأتى التعبير فى الإيمان بالاسم كقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [9] لأن النفقة أمر فعلى شأنه الحدوث والتجدد بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها ، والمراد بالتجدد فى الماضى الحصول مرة بعد أخرى ، وفى المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى ، ومضمر الفعل فى ذلك كمظهره ولهذا قالوا : إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ [10] فالنصب على أنه مصدر سد مسد الفعل ، وأصله :

---

(١) الأنعام : ٦٤ (٢) الأنعام : ٦٣ (٣) يونس : ١٥
(٤) يونس : ١٥ (٥) الإسراء : ٨٥ (٦) الممتحنة : ١٠
(٧) النساء : ٣٢ (٨) آل عمران : ١٣٤ (٩) الحجرات : ١٥
(١٠) الذاريات : ٢٥

نسلم عليك سلامًا ، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، بخلاف رده : ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ (١) . فإنه معدول به إلى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف والمعنى : عليكم سلام . للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذًا بأدب الله تعالى (٢) ، وهو أيضاً من إكرامه لهم .

* * *

٨ - العطف

وهو ثلاثة أقسام :

١ - عطف على اللَّفظ : وهو الأصل .

٢ - وعطف على المحل : وجعل منه الكسائى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ ﴾ (٣) فجعل « الصابئون » عطفًا على محل « إن » واسمها ، ومحلها الرفع بالابتداء .

٣ - وعطف على المعنى : ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ (٤) فى قراءة غير أبى عمرو بجزم « أكن » وخرَّجه فى قراءة غير الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم (٥) ، لأن معنى « لولا أخرتنى فأصَّدَّق » ومعنى « أخرنى أصَّدَّق » واحد ، كأنه قيل : إن أخرتنى أصَّدَّق وأكن ، كما خرَّج الفارسى عليه قراءة قنبل : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ (٦) بسكون الراء ، لأن « مَن » الموصولة فيها معنى الشرط .

واختُلِف فى جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه الأكثرون ، وأجازه

---

(١) الذاريات : ٢٥

(٢) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء : ٨٦) .

(٣) المائدة : ٦٩ (٤) المنافقون : ١٠

(٥) هذه العبارة التى حكاها سيبويه عن الخليل ، وهى المنقولة فى كتب التفسير : إنه جزم على توهم الشرط الذى يدل عليه التمنى ، ولفظ « التوهم » غير لائق فى تفسير القرآن والأولى أن يقال : عطف على المعنى ، كما هو صريح العبارة بعد .

(٦) يوسف : ٩٠

جماعة مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) عطف على « تؤمنون » فى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) وخرَّجه الآخرون على أن « تؤمنون » بمعنى آمنوا ، فهو خبر بمعنى الإنشاء ، فصح عطف الإنشاء عليه . « وبَشِّر » كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك ، وفائدة التعبير بالخبر فى موضع الأمر الإيذان بوجوب الامتثال ، أى كأنه امتثل فهو يُخبر عن إيمان وجهاد موجودين .

واختُلف أيضاً فى جواز العطف على معمولى عاملين ، واستدل المجيزون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، فقوله : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ، ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ من العطف على معمولى عاملين سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت « إن » و« فى » أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الواو الجر فى : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والنصب فى « آيات » وإذا رفعت فالعاملان « الابتداء » و« فى » عملت الواو الرفع فى « آيات » والجر فى « اختلاف » ذكر هذا الزمخشرى (٤) .

واختُلفَ أيضًا فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وخرَّج عليه المجيزون قراءة حمزة : ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ (٥) بجر الأرحام عطفًا على الضمير ، وجعلوا منه قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ (٦) على أن « المسجد » معطوف على ضمير « به » .

* * *

---

(١) الصف : ١٣ (٢) الصف : ١٠ - ١١ (٣) الجاثية : ٣ - ٥

(٤) انظر تفسير الآية فى « الكشاف » للزمخشرى .

(٥) النساء : ١ (٦) البقرة : ٢١٧

الفرق بين الإيتاء والإعطاء

وهناك فرق بين الإيتاء والإعطاء فى القرآن ، قال الجوينى [1] : « إن الإيتاء أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء له مطاوع ، يقال : أعطانى فعطوت ، ولا يقال فى الإيتاء : آتانى فأتيتُ ، وإنما يقال : آتانى فأخذت ، والفعل الذى له مطاوع أضعف فى إثبات مفعوله من الذى لا مطاوع له ، لأنك تقول : قطعته فانقطع ، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول المحل ، لولاه لما ثبت المفعول ، ولهذا يصح : قطعته فما انقطع ، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك ، فلا يجوز أن يقال : ضربته فانضرب أو ما انضرب ، ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل ، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول فى المحل ، والفاعل مستقل بالأفعال التى لا مطاوع لها ، فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء » .

ولهذا شواهده ، فقد قال تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [2] لأن الحكمة إذا ثبتت فى المحل دامت ، وهى عظيمة الشأن ، وقال : ﴿ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [3] ، وقال : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [4] لأن بعد الكوثر منازل أعلى ، حيث يكون الانتقال إلى ما هو أعظم منه فى الجنة ، وقال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [5] لأن الجزية موقوفة على قبول منا ، وهم لا يؤتونها إيتاءً عن طيب قلب ، وإنما عن كُره ، وقد عبَّر بالإيتاء فى جانب المسلمين بالنسبة إلى الزكاة ، وفى ذلك : إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة ، لا يكون كإعطاء الجزية .

* * *

لفظ « فعل »

يجىء لفظ « فعل » كناية عن أفعال متعددة لا للدلالة على فعل واحد ، فيفيد

---

(١) انظر : البرهان » للزركشى (٤/ ٨٥) .
(٢) البقرة : ٢٦٩
(٣) الحجر : ٨٧
(٤) الكوثر : ١
(٥) التوبة : ٢٩

بهذا الاختصار ، كقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) فإنها تشمل كل منكر لا يتناهون عنه ، وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ (٢) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله .

وحيث أطلقت فى كلام الله فهى محمولة على الوعيد الشديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ (٤) .

* * *

لفظ « كان » (٥)

وردت « كان » فى الإخبار عن ذات الله وصفاته بالقرآن كثيرًا وقد اختلف النحاة وغيرهم فى أنها تدل على الانقطاع ، على مذاهب :

أحدها : أنها تفيد الانقطاع لأنها فعل يُشعر بالتجديد .

والثانى : لا تفيده ، بل تقتضى الدوام والاستمرار ، وبه جزم ابن معطى (٦) فى ألفيته ، حيث قال :

* وكان للماضى الذى ما انقطعا *

وقال الراغب فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٧) نبَّه بقوله : « كان » على أنه لم يزل منذ أوجِدَ منطويًا على الكفر .

والثالث : أنه عبارة عن وجود شىء فى زمان ماض على سبيل الإبهام . وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا على انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ

---

(١) المائدة : ٧٩ (٢) البقرة : ٢٤ (٣) الفيل : ١

(٤) إبراهيم : ٤٥ (٥) انظر : « البرهان » (٤/ ١٢١) .

(٦) هو الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطى المتوفى سنة ٦٢٨ هجرية ، سماها « الدرة الألفية » وأولها : يقـــول راجى ربه الغفور يحيى بن معط بن عبد النور

وإليها أشار ابن مالك بقوله : فائقة ألفية ابن معطى .

(٧) الإسراء : ٢٧

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1] قاله الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [2] عند تفسيره للآية فى « الكشاف » .

وذكر ابن عطية فى سورة الفتح أنها حيث وقعت فى صفات الله فهى مسلوبة الدلالة على الزمان .

والصواب من هذه المقالات مقالة الزمخشرى ، وأنها تفيد اقتران معنى الجملة التى تليها بالزمن الماضى لا غير ، ولا دلالة لها نفسها على انقطاع ذلك المعنى ولا بقائه ، بل إن أفاد الكلام شيئاً من ذلك كان لدليل آخر .

وعلى هذا يُحمل معناها فيما وقع فى القرآن من إخبار الله تعالى عن صفاته وغيرها بلفظ « كان » كثيرًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [3] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [4] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [5] ، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [6] ، ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [7] .

وحيث أخبر الله بها عن صفات الآدميين فالمراد التنبيه على أنها فيهم غريزة وطبيعة مركوزة فى النفس كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ [8] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [9] .

وقد تتبع أبو بكر الرازى استعمال « كان » فى القرآن ، واستنبط وجوه استعمالها فقال : « كان » فى القرآن على خمسة أوجه :

بمعنى الأزل والأبد ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [10] .

وبمعنى المعنى المنقطع ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [11] وهو الأصل فى معانى « كان » كما تقول : كان زيد صالحًا أو فقيرًا أو مريضًا أو نحوه .

---

(١) الأحزاب : ٥٠ (٢) آل عمران : ١١٠ (٣) النساء : ١٤٨
(٤) النساء : ١٣٠ (٥) الأحزاب : ٥٩ (٦) الأنبياء : ٨١
(٧) الأنبياء : ٧٨ (٨) الإسراء : ١١ (٩) الأحزاب : ٧٢
(١٠) النساء : ١٧٠ (١١) النمل : ٤٨

وبمعنى الحال ، كقوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (٢) ، وبمعنى الاستقبال ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (٣) .

وبمعنى « صار » كقوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وتأتى « كان » فى النفى ويكون المراد بها نفى صحة الخبر لا نفى وقوعه ولذا تؤول بمعنى « ما صح وما استقام » كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ (٧) .

* * *

لفظ « كاد »

وللعلماء فى « كاد » مذاهب :

أحدها : أنها كسائر الأفعال نفيًا وإثباتًا ، فإثباتها إثبات ونفيها نفى ، لأن معناها المقاربة ، فمعنى كاد يفعل : قارب الفعل ، ومعنى ما كاد يفعل : لم يقاربه ، فخبرها منفى دائمًا ، ولكن النفى فى الإثبات مستفاد من معناها ، لأن الإخبار بقرب الشىء يقتضى عرفًا عدم حصوله ، وإلا لم يتجه الإخبار بقربه ، أما إذا كانت منفية فلأنه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلاً عدم حصوله ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ (٨) ولهذا كان أبلغ من قوله : « لم يرها » لأن مَن لم ير قد يقارب الرؤية .

والثانى : أنها تختلف عن سائر الأفعال إثباتًا ونفيًا ، فإثباتها نفى ، ونفيها إثبات ، ولذا قالوا : إنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قيل : كاد يفعل ،

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) النساء : ١٠٣ (٣) الإنسان : ٧

(٤) « البرهان » للزركشى (٤/١٢٧) - (والآية من سورة البقرة : ٣٤) .

(٥) الأنفال : ٦٧ (٦) التوبة : ١٧ (٧) النور : ١٦

(٨) النور : ٤٠

فمعناه أنه لم يفعله بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (١) لأنهم لم يفتنوه ، وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فمعناه أنه فعله بدليل قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) لأنهم فعلُوا الذبح .

والثالث : أنها فى النفى تدل على وقوع الفعل بعسر وشدة كقوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

والرابع : التفصيل فى النفى بين المضارع والماضى ، فنفى المضارع نفى ، ونفى الماضى إثبات ، يدل على الأول قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ مع أنه لم ير شيئاً ، ويدل على الثانى قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ مع أنهم فعلوا .

والخامس : أنها فى النفى تكون للإثبات إذا كان ما بعدها متصلاً بما قبلها ومتعلقًا به ، كقوله : ما كدت أصل إلى مكة حتى طفت بالبيت الحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

* * *

لفظ « جعل »

تأتى « جعل » فى القرآن لعدة معان :

أحدهما : بمعنى « سمى » كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُواْ القُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (٣) أى سموه كذبًا ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ (٤) على قول ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الملائكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ﴾ (٥) .

الثانى : بمعنى « أوجد » وتتعدى إلى مفعول واحد ، والفرق بينهما وبين الخلق ، أن الخلق فيه معنى التقدير ، ويكون عن عدم سابق حيث لا يتقدم مادة ولا سبب محسوس ، بخلاف الجعل بمعنى الإيجاد ، قال تعالى : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ

---

(١) الإسراء : ٧٣ (٢) البقرة : ٧١ (٣) الحجر : ٩١
(٤) الزخرف : ١٩ (٥) النجم : ٢٧

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (١) ، وإنما الظلمات والنور تنشأ عن أجرام توجد بوجودها ، وتعدم بعدمها .

الثالث : بمعنى النقل من حال إلى حال والتصيير ، فتتعدى إلى مفعولين : إما حسًا كقوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ (٢) ، وإما عقلاً كقوله : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (٣) .

الرابع : بمعنى الاعتقاد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٤) .

الخامس : بمعنى الحكم بالشيء على الشيء ، حقًا كان أو باطلاً ، فالحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥) ، والباطل ، كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ (٦) .

* * *

« لعل » ، و« عسى »

تستعمل « لعل » و« عسى » للرجاء والطمع فى كلام المخلوقين حيث يشك الخلق فى الأمور الممكنة ولا يقطعون على الكائن منها ، أما بالنسبة إلى الله تعالى :

(أ) فقيل : هما يدلان على الحصول والوجوب ، لأن نسبة الأمور إلى الله نسبة قطع ويقين .

(ب) وقيل : إنهما للترجى على بابهما ، ولكن الترجى يكون بالنسبة إلى المخاطبين .

(ج) وقيل : إن « عسى » و« لعل » فى كثير من المواضع تكون للتعليل .

قال تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨) .

* * *

---

(١) الأنعام : ١ (٢) البقرة : ٢٢ (٣) سورة ص : ٥
(٤) الأنعام : ١٠٠ (٥) القصص : ٧ (٦) الأنعام : ١٣٦
(٧) الإسراء : ٧٩ (٨) المائدة : ١٠٠